خاتمة بطل وقعة الزاب

(١)

فى أوائل السنة الهجرية اثنتين وثلاثين ومائة كان تواتر الحوادث فى الشرق الأدنى ينذر بقرب وقوع انقلاب سياسى خطير يؤثر تأثيراً بعيد المدى فى مصاير الأمم الاسلامية وسير التاريخ العالمى . وكأنما كانت تلك الأرض التى شاهدت ميلاد أكثر الأديان المعروفة ، ونشأة الدول الشرقية القديمة والأسر الكبيرة ، والتى مرت بها جيوش كبار الفاتحين والغزاة ، تتهيأ لاستقبال أسرة جديدة ودولة ناشئة ، ولم يكن ذلك غريباً ، فهذه الرقعة من الكرة الأرضية لم تعرف الاستقرار ولا الدوام ، وطالما شاهدت اصطراع المبادئ والمذاهب ، وكفاح الدول والدويلات . وكانت الجيوش الخراسانية الظافرة قد بلغت مدينة شهزور فى الشمال واقتحمتها وتقدمت منها إلى نواحى الموصل ، واستولت على الكوفة فى الجنوب وجاوزتها متجهة إلى مدينة واسط . وروّعت هذه الأنباء الخليفة الأموى مروان بن محمد ، وأقضّت مضجعه ، فأخذ ينفض عن نفسه غبار الخمول الذى استولى عليه أخيراً بعد أن كاد ييأس من تلافى اختلال الأمور ورتق الفتوق وصلاح الأحوال . وشرع يجمع جموعه ويعد ما استطاع من قوة وهو مقيم فى مدينة حران التى كان يألفها ويطمئن إلى الإقامة بها ، ويؤثرها على غيرها من عواصم

ملكه . وكانت الرسل تختلف بين السياسى الداهية والقائد الموهوب أبى مسلم الخراسانى ، وهو مقيم فى مرو ، و بين زعيم العباسيين الإمام إبراهيم ابن محمد المقيم فى قرية الحميمة . وكان مروان يعرف شيئاً عن العلاقة الغامضة بين العباسيين و بين تلك الحركة الخطيرة والثورة العنيفة التى بدأت فى خراسان . وأخذت تنتقص أطراف ملكه وتقوض دولته ، ولكنه كان ينقصه البرهان القاطع والحجة الدامغة . وفى ثورة من ثورات الغضب ونوبة من نوبات اليأس أمر مروان أصحابه بأن يشددوا الرقابة على الطريق بين خراسان والحميمة ليجدوا الوثيقة المنشودة التى تسوغ له اتهام الزعيم العباسى . وأثمرت المراقبة ثمرتها المرجوة ، فبعد أيام معدودات من هذا التشديد مثل بين يديه بعض أصحابه ومعهم رسول يحمل رسالة من الإمام إبراهيم إلى أبى مسلم يوصيه فيها بالجد فى أمره ، و يرسم له الحدود التى يتبعها ، والخطط التى يأخذ نفسه بتنفيذها . وكانت هذه الرسالة مكتوبة بخط إبراهيم وممهورة بتوقيعه ، ولما تأمل مروان كتاب إبراهيم سرَّ به ، على ما كان يحتضره فى هذه الأيام العصيبة من هموم ، وما كان يهجس بنفسه من الهواجس ، لأنه وجد فيه الحجة التى كان يلتمسها من زمن للقبض على إبراهيم و إرغامه والخلاص منه . وقد كان الأمويون يجدون متعة ومسلاة فى إذلال تلك الأسر الكبيرة التى كانت تنافسهم قديماً فى الرياسة ، وتساميهم فى المكانة ، وكانوا يرحبون بالفرصة التى تتيح لهم ذلك . فلم يتردد مروان فى إصدار أمره إلى عامل دمشق بأن يكتب إلى عامل البلقاء بالتوجه إلى الحميمة والقبض على ابراهيم

و إشخاصه إلى حران ليتولى مروان بنفسه التحقيق معه ، ومواجهته بتهمة الخيانة الكبرى . ولما توجه العامل إلى الحميمة ، كان لهذه المفاجأة وقع أليم فى نفس إبراهيم وأهل بيته وأبناء عمومته ، ولكن العباسيين كانوا قد تعودوا إخفاء عواطفهم وكتمان أمورهم ، فلم يلبث إبراهيم أن استفاق من ذهوله ، وثاب إليه صفاء تفكيره ، وأدرك الموقف على حقيقته ، ولم يكن يتوقع النجاة من قبضة مروان ، ولذا نعى نفسه إلى أهل بيته ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس ، وبالسمع والطاعة له وأوصى إلى أبي العباس وجعله الخليفة من بعده . وكانت الحالة تستلزم المبادرة إلى الرحيل ، فقد أصبح بقاؤهم فى الحميمة محفوفاً بالأخطار ، وخرجوا فى ركب وهم لا يتجاوز عددهم أربعة عشر رجلا ، وكان أكثرهم من الرجال ذوى الكفايات الذين قدر لهم أن تبقى أسماؤهم فى الذاكرة ، وتمتلىء بأخبارهم السير. وكان فى طليعة رجالات هذا الركب رجلان مديدا القامة كلاهما قد طوى برد الشباب وبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، وكان أحدهما عمًّا للآخر ، وكان العم أقنى حديد البصر أصفر الديباجة ، يبدو فى حركاته النشاط والتوقد وبعد الهمة وعدم التردد ، وتلمح فى عينيه بريق القسوة ، وكان الثانى أسمر رقيق السمرة تشع عيناه ذكاء ودهاء ، وتبدو عليه أناة المفكرين ووقار العلماء ، وتستبين فى حركاته مظاهر اليقظة التامة مع التحفظ الشديد . وكان اسم الأول عبدالله بن على ، واسم الثانى عبدالله بن محمد ، وكان يكنى بأبي جعفر ، ويروى لنا المسعودى هيرودوت التاريخ الإسلامى — كما

يرى العلامة روبرت فلنت ، أنهم وهم فى طريقهم لقيتهم أعرابية على بعض مياه العرب ، وقد تقدم أبو العباس وأخوه أبو جعفر وعمه عبدالله فيمن كان معهم إلى الماء ، فقالت الأعرابية : « تالله ما رأيت وجوهاً مثل هذه ما بين خليفة وخليفة وخارجى » فاسترعى قولها التفات أبى جعفر ، فقال لها « كيف قلت ؟ » فقالت : والله ليبلغنها هذا ، وأشارت إلى أبى العباس ولتخلفنه أنت وليخرجن عليك هذا ، وأشارت إلى عبد الله ابن على .

وسواء كانت هـذه الرواية من القصص الموضوعة التى يقصد بها المسعودى إلى الإغراب والتشويق ، أكثر مما يقصد إلى تحرى الحق ، أو كانت هذه الأعرابية قد استشفت بصفاء فطرتها وصادق حسها بعض حجب الغيب المستور ، فان الواقع أن هذين الرجلين ، على ما كان بينهما من أواصر القربى ، لم يكن كل منهما يألف صاحبه أو يستريح إليه ، فقد كان كلاهما شديد الأثرة بعيد المطامع كثير الاعتداد بنفسه ، وكان عبدالله ابن على مقداما إلى حد التهور والاستهانة بالعواقب ، أما أبو جعفر فكان شديد الحذر فإذا أقدم على شىء كان على بينة من أمره ، وقد نشآ معا فى الحميمة ، وكان يسليهما فى هذا المنفى الموحش ما يعتلج فى نفسيهما من الآمال والأحلام فتزدهر جدوبته وتهون وحشته ، وكان العباسيون يطلبون شيئين ، وهما النفوذ والمال ، وكان فى أبى جعفر إلى كفايته العملية طبيعة الباحث المنقب ، ولذا أولع بدراسة الفقه وصحبة العلماء ، أما عبدالله ابن على فكانت نزعته عملية محضة . ولما ثار بالأمويين عبدالله بن معاوية

العلوى وتغلب على فارس وكورها ، وامتد سلطانه وانتشر أمره ، وأتاه الناس من كل صوب وجبى المال و بعث العمال ، أتاه أبو جعفر وأتاه عبد الله بن على ، ولكن عبد الله بن معاوية لم يكن الرجل الذى يستطيع أن يؤسس ملكا أو يقيم دعائم دولة ، فقد كان مغلوبا على أمره منقاداً لشهواته ، ولذا لم يلبث أن أفل طالعه ، وتبددت جموعه ، ومضى هاربا إلى خراسان وأسر عدد كبير من رجاله وفيهم عبد الله بن على ، ولما مثل بين يدى قائد الجيش الأموى - ابن ضبارة — قال لعبد الله : «ما جاء بك إلى عبد الله بن معاوية وقد عرفت خلافه لأمير المؤمنين ؟ »

فأجابه عبد الله : « كان علىّ دين فأتيته » وأدرك عبد الله أن هذا الجواب لم يقنع القائد الأموى ، فأطلق لسانه فى ابن معاوية ، وبالغ فى تسفيه آرائه ، والنيل من أخلاقه ، وأعجبت هذه النغمة ابن ضبارة كما قدر عبد الله فأرسله إلى حاكم العراق ابن هبيرة ليعرف منه حالة ابن معاوية. أما أبو جعفر فانه لم يخرج من مأزق اتصاله بابن معاوية بهذه السهولة ، وناله من وراء ذلك الضرب والسجن .

وظل ركب العباسيين فى سيره يطوى مراحل صحراء بادية الشام فدفداً بعد فدفد ، يحدوه الأمل ويستحثه الخوف ، ولما انتهى الركب إلى تلك القرية الواقعة فى منتصف الطريق — المعروفة بدومة الجندل — التقى بهم داود بن على وابنه موسى ، وكانا عائدين من العراق أو من غيرها ، فعجب داود لهذا اللقاء على غير ميعاد فقال لهم : « ما تريدون وما قصتكم ؟ »

فتولى الحديث معه أبو العباس وقص عليه قصتهم ، وذكر له أنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم ، فاستكثر داود هذه الجرأة وعدها مغامرة خطيرة ، وقال لابن أخيه

« يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى مروان ، مروان بن محمد مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق فى حلبة العرب ؟ »

فسمع من جانب أبى العباس هذا الجواب الموجز الجامع : « من أحب الحياة ذل » وسمت به هذه الكلمة فوق مرتبة الخوف والتردد وحساب المكسب والخسارة ، فالتفت إلى ابنه وقال له : « صدق ابن عمك، فارجع بنا معه نعش أعزاء أو نمت كراما »

واتجهوا بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقى ضاربين فيما بين بادية العراق وبادية الجزيرة آخذين فى طريق الكوفة ولما شارفوا الكوفة وجه أبو العباس رسولا إلى أبى سلمة كبير دعاة العباسيين بها ، فأنكر مقدمهم وقال للرسول : « خاطروا بأنفسهم وعجلوا فليقيموا بقصر مقاتل — وهو على مرحلتين من الكوفة — حتى ننظر فى أمرنا » فعاد إليه الرسول وكتبوا إليه « إنّا فى برية ولا نأمن قصد جيوش الشام إيانا لأنهم بهيت على ثلاث مراحل منا » وسألوه الإذن لهم فى الدخول إلى الكوفة ليتحرزوا بها ، فأذن لهم على كره منه ، وكتم أمرهم نحوا من شهرين من جميع القواد والشيعة . وأرجح أن أبا سلمة لطول إقامته فى العراق وأكثر أهلها شيعة على تأثر

بمذهبهم وارتأى رأيهم فى أن الخلافة حق من حقوق أولاد على ، فلما صح عنده موت الإمام إبراهيم حاول نقل الأمر إلى العلويين، وكاتب ثلاثة من أعيانهم ، ولكنهم رفضوا دعوته وآثروا السلامة ، وارتاب أهل خراسان بأبى سلمة ، وساءهم أن يعظم نفوذه ويستأثر بالأمر ، وعلموا بعد ذلك بوجود أبى العباس فى الكوفة ، فأحبطوا ما أراده أبو سلمة وذهبوا إلى الكوفة وقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة . ولما علم أبو سلمة بذلك اضطر إلى المجىء بنفسه وسلم على أبى العباس بالخلافة . وظهر فى أعقاب ذلك أبو العباس فى الكوفة وألقى خطبته المشهورة وأخذت له البيعة ، ثم خرج من الكوفة وعسكر فى حمام أعين وفى عسكر أبى سلمة واستخلف على الكوفة عمه داود .

كان الآن العمل المقدم والخطوة الحاسمة هى التغلب على مروان ، وهزيمته وتمزيق جيشه ، فدعا أبو العباس أهل بيته وعرض عليهم قيادة الجيش الذى سيتولى محاربة مروان ، ورغبة منه فى تشجيعهم قطع على نفسه عهداً بأن يجعل ولاية العهد لمن يهزم جموع مروان . فتقدم عبد الله بما عرف عنه من إقدام واستهانة بالأخطار ، والحقيقة أن عبد الله كان يحاول أن يقتنص كل فرصة تمكنه من تحقيق ما يختلج بنفسه من المطامع ، وللحروب جاذبية خاصة لأمثال هذا الرجل المغامر المقامر ، فهى قد ترفع أحيانا إلى درجة البطولة . وعرف عبد الله كيف يستثير حمية جنده ويبتعث شجاعتهم ، ويذكر لهم سوء سياسة الأمويين بلهجة مؤثرة وطرائق مسرحية ، فهزموا جيش مروان هزيمة منكرة على مقربة من مدينة أربيل التى هزم عندها

الإسكندر المقدونى جموع الفرس . وكان جيش مروان يفوق جيش عبد الله فى العدد والعدة ، ولكن عبد الله عرف كيف يقوى روح جيشه المعنوية وكيف يعمل بنصائح القادة المحنكين من رجاله . وقد حارب مروان ومؤخرة جيشه خلفها نهر الزاب الأعلى فلما وقعت الهزيمة كان عدد الغرقى فى النهر من جيشه اللجب أكثر من عدد القتلى الذين سقطوا فى الميدان ، ولم يمكنه ذلك من جمع فلوله ليشتبك مع جيش عبد الله فى معركة أخرى. على أن هزيمة مروان وتحطيم قوته لم تكن خاتمة متاعب العباسيين ، فقد كان على عبد الله أن يضطلع بعد ذلك بعبء إخضاع سوريا وهى حصن الدولة الأموية ، واقتحام مدنها والقضاء على نفوذ بنى أمية فيها . ولم يكن ذلك بالأمر الهين ولا بالمطلب السهل ، فقد كانت قوة بنى أمية متركزة فى سوريا ، وكان لا يزال بها كثير من زعماء العشائر وشجعان القواد الذين يميلون إلى بنى أمية ويدينون لهم بالوفاء . وقد برهن عبد الله على أنه رجل مثل هذا الموقف ، وقد كان عبد الله بطبيعته رجلا فتاكا رهيباً لا يعرف هاتف الضمير ولا وسوسة العاطفة ، وكان من هؤلاء الرجال الأفذاذ الذين يتخذهم القدر آلات صماء لتنفيذ مآربه وتحقيق غاياته ، ويشعر الإنسان عند التفكير فى أعمالهم وإقدامهم على الكبائر أنهم مدفوعون بقوى كونية مجهولة ودوافع خفية تجعلهم ينطلقون من كل قيد ويقطعون كل علاقة ، وقد أسرف عبد الله فى القتل وسفك الدماء حتى صار أكثر جدارة بهذا اللقب البغيض « السفاح » من ابن أخيه اللين المستضعف الخليفة

أبي العباس . ولكن هذه القسوة وطدت ملك أسرته ، وجعلت الخليفة العباسي الأول يأمن جانب الشام ، ولم يكن ذلك بالأمر القليل الأهمية والدولة فى طالعة أمرها والذين يبغون بها السوء كثيرون . وعرف له أبو العباس فضله وحسن بلائه فأقره على ولاية الشام . على أن أبا العباس حاول بعد ذلك أن يتحلل من العهد الذى قطعه على نفسه بأن يجعل المتغلب على مراون ولى عهده . واستشار فى ذلك أصحابه وخاصته فنصحوا له بألا يخرج الخلافة من ولد أبيه إلى ولد عمه . وفى السنة التى توفى فيها أبو العباس عقد لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ، ومن بعده إلى عيسى بن موسى وكتب العهد بذلك وصيره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى .

وفى نفس السنة قدم أبو مسلم العراق من خراسان على أبي العباس . ولما دنا من الأنبار أمر أبو العباس الناس يتلقونه ، وأقبل إلى أبي العباس فدخل عليه فأعظمه وأكرمه ، ثم استأذن أبا العباس فى الحج فقال له : « لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم » وكان ما بين أبي جعفر وأبي مسلم متباعداً ، وكان أبو العباس قد تعمد استدعاء أبي جعفر من الجزيرة وأسند إليه إمارة الحج ليتجنب إسنادها إلى أبي مسلم خشية ازدياد نفوذه وتسامى مكانته . وقدم عليه عمه عبد الله فعقد له أبو العباس على الصائفة فى أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل ، وسار عبد الله على رأس هذا الجيش الكثيف حتى بلغ أطراف الدروب ، وبينما كان

أبو جعفر وأبو مسلم عائدين من الحج والمنافسة بينهما فى الطريق على أشدها، وكان عبد الله يُغِذ السير ليتوغل فى الدروب أصيب الخليفة أبو العباس بالجدرى ، ولم يرحم هذا المرض الوبيل وجهه الحسن ولا شبابه الناضر الغض ، فمات لاثنتى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة بالأنبار، وكانت وفاته إيذاناً باشتداد الصراع بين الرجال الثلاثة الذين كانوا دعامة ملكه وبحول دولته ، وهم عبد الله بن على والى الشام ، وأبو جعفر والى الجزيرة ، وأبو مسلم والى خراسان ، وقد كانت المنافسة بينهم موجودة من قبل ولكنها كانت خفية المدب ، ناعمة الملمس .

obeikandl.com